أمجد ناصر *

المحلي والخارجي في الثورات العربية

I

سيتذكر العرب طويلاً هذه السنة. إنها، حقاً، من "أيام العرب"، وهذه الأخيرة، كما نعرف، سجل حافل بالوقائع والغارات التي دارت بين القبائل العربية في "العصر الجاهلي"، أو بين بعض القبائل العربية والفرس، واكتسبت على لسان الرواة والإخباريين طابع الملحمة، وربما الأسطورة، وتناقلها عرب لاحقون، رواية وشعراً، جيلاً بعد جيل. لكن الفارق أن أيام العرب في سنة ٢٠١١ لم تكن بين قبائل تتصارع على الزعامة والمجال الحيوي، وإنما بين شعوب مُهانة وحاكمين جائرين من بني جلدتهم أدخلوهم عن طريق السجون والاستخبارات والتجويع، إلى حظائر الصمت والطاعة في "الدولة الوطنية". سيتذكر العرب طويلاً هذه السنة، ففيها راحت الانتفاضات، درامية الطابع، تكرُّ من بلد إلى آخر باذلة الغالي والنفيس في سبيل نسمة من الحرية ودرهم من الكرامة. وليس مستبعداً أن تكون معركة العرب الكبرى (فلسطين والجولان وغيرهما من الأراضي العربية المحتلة) قد تحررت من خزائن وزارات الدفاع المحكمة الإغلاق وكتبت لنفسها شهادة ميلاد جديدة.

فالشعارات القديمة التي كانت تقول إن طريق فلسطين تمر بالقاهرة وعمّان ودمشق وبيروت ربما تكون صحيحة، لكنها هذه المرة لن تتحقق على يد "الطليعة الثورية"، وإنما على يد الشعوب الحرة المالكة قرارها ومصيرها. هذه هي الأرضية الصلبة للمقاومة والممانعة وامتلاك القرار والمصير، إلاّ إنها ليست كليشيه "المقاومة" و"الممانعة" كما تبدو عليه في النظام السوري ومن لفَّ لفَّه. غير أن أيام العرب هذه لم تمر من دون دم، أو شكوك، أو أسئلة تصعب المغامرة بجواب عنها، لكن ما هو مهم أن ما بدا مستحيلاً حدث فعلاً.. وها نحن نراه رأي العين.

(*) شاعر أردني.

II

لم يصدق العرب أنفسهم. لم يصدقوا أنهم قادرون على خلع نير الطغيان من أعناقهم. فما حدث كان أكبر من أن يتوقعوه، وقد هالهم أنهم، بالحناجر، وبالأيدي المعروقة، والصدور العارية، وببضعة شعارات، قادرون على كسر جدار الخوف والصمت والانسحاق الذي حُبسوا خلفه طويلاً. إن الثورات العربية التي اندلعت من جسد التهمته النيران في بلدة مغمورة ونائية في تونس فاجأتنا قبل أن تفاجئ غيرنا. وهذا السيل الهادر من الحناجر والأيدي والأجساد الفتية، والتصميم الذي لا نعرف من أين حطَّ علينا، أربكنا. فقد صدقنا أننا استثناء، ولسنا كخير أمة أُخرجت للناس، فهذا أمر ظل في الكتاب ولم يترك في الواقع أثراً، بل استثناء من الحرية والكرامة. مجرد جسد تبلّد ولم يعد يصدر عنه ما يوحي أنه حيّ إلاّ ما يربطه بحياة الأنعام: البيولوجيا الصرف. هذه هي علامات الحياة وأماراتها في جسد أمة تتمدد، بخنوع وذلّة، بين ماءين مالحين. لا شيء، تقريباً، غير ذلك. دليلنا على الاستثناء المعيب هو هذه الأنظمة البائسة التي انحطّت، في هزيعها الأخير، إلى مستوى العصابة. دليلنا هو الخوف الذي سكننا كقرينٍ من كلِّ مَن تلوح على كتفه شارة: الجندي؛ الشرطي؛ جابي المياه والكهرباء؛ ساعي البريد، إلخ. لكن فجأة يحدث ما لم يحدث من قبل: تجرّب الجموع التكتل والتّراص في الشارع والميدان العام، تزحف من الأزقة والحارات كي تصب في النهر البشري الذي يكبر ويعلو ويموج، تجرّب استخدام الحبال الصوتية المعطلة فتطلع الصرخة الحبيسة، وتهدر الأصوات أكثر وأعلى فيتداعى، تحت عصف هديرها، هيكل الطغيان ويتبدى خواؤه الفظيع. لا شيء داخل هذا الهيكل المخيف. لا شيء سوى حاكم يرتجف، هو أيضاً، من الخوف والعزلة. أساطير الأدب تحضر في الحال. ما ظننا أنه خيال روائيين وتهويمات شعراء بدا حقيقياً. ها هم البطاركة المؤبدون والمخيفون يرتجفون من الخوف ويطلبون النجاة بأي ثمن. حدث هذا، كما تعلمون، في تونس ومصر على التوالي.

إن الانهيار السريع لاثنين من أشرس الأنظمة العربية أمام قوة الناس العارية من أي سلاح سوى الإرادة والشوق الممضّ إلى الحرية، تحوّل إلى عدوى انتشرت في الهواء العربي، فخرج الناس من الكهوف والمغاور، ومن وراء الأسوار العالية، في أكثر من مكان عربي. وفي هذه الأثناء صحت الأنظمة العربية التي شعرت بالزلزلة تحت أقدامها من طمأنينتها إلى ثبات "طاعة" شعوبها وانصياعها إلى الاستبداد، فانتضت السلاح، وبادرت إلى الرصاص الغزير، وعندما لم ينفع رصاص البنادق في إعادة "العبيد" الآبقين إلى حظائر الطاعة، دفعت دباباتها التي كادت تصدأ في المستودعات، إلى المدن والبلدات العاصية.

III

مع انطلاق دبابة النظام العربي محوّلة الشعب إلى زمر من الإرهابيين والسلفيين والمتآمرين والجرذان حامت في أجوائنا أسئلة التشكيك: هل هذه الثورات من صنعنا أم من صنع أميركا والصهيونية العالمية؟ هل ما يجري ثورة أم مؤامرة علينا؟

ولم يكن هذا سؤال الأنظمة العربية فقط، بل، ويا للأسف، كان سؤال بعض المثقفين والسياسيين العرب أيضاً. وقد بدأ هذا السؤال خجولاً بعد سقوط نظامَي بن علي ومبارك، ثم

راح يعلن نفسه، بقوة وصلافة، عندما هبّت رياح الثورة على النظام السوري. وهنا دخلت على خطاب المشككين مفردات مثل: المقاومة؛ الممانعة؛ الإمبريالية؛ المؤامرة؛ التناقض الرئيسي؛ التناقض الفرعي؛ وهذه مفردات، لمَن لا يعلم، مأخوذة من كتاب جيب اليسار العربي المُيَسَّر بشقَّيه القومي والماركسي.

فتش عن أميركا! فتش عن الأقبية السرية التي حيكت فيها هذه المؤامرة علينا! هذا ما أفصح عنه بعض كتابات المثقفين العرب التي اقتبست أقوالاً وتحليلات ساذجة لكتّاب شبه مجهولين أرجعوا "الربيع العربي" إلى قبو في الاستخبارات الأميركية، أو إلى مراكز أبحاث (أميركية أيضاً) درَّبت "الطليعة الثورية" الجديدة على استخدام الفايس بوك والتويتر والخليوي وأطلقتهم، كمخربين ما بعد حداثيين، لإسقاط أنظمة تابعة لأميركا!

لقد أُخرج ملايين الشبان العرب من لامبالاتهم وكسلهم وعطالتهم الجسدية والروحية إلى الشوارع؛ إلى الثورة على أنظمة فاسدة عاتية، وإلى الموت بصدور عارية، وببرامج كومبيوتر، وبتويتر، وبصفحات في الفايس بوك!

فها هي كاتبة روسية تدعى آنا فارفولوميفا صارت مرجعاً وحجة لا تدحض، للمشككين في الثورات العربية، تقول (http://www.yafanews.net):

إن قلاقل "الشرق الأوسط" وشمال إفريقيا، وآخرها صدامات الأردن وسورية، ترتبط الآن، وعن كثب، بالتكنولوجيات الإلكترونية. وقد خرج تعبير "ثورات التويتر" إلى حيز الوجود عندما بدأ كثيرون يشيرون إلى غرائب الأزمة السياسية التي شهدت التكنولوجيات الإلكترونية تفعل فعلها. وربما يكون هناك أكثر مما تراه العين في الأحداث الأخيرة التي اجتاحت شمال إفريقيا و"الشرق الأوسط".

فأحداث ١١ أيلول/ سبتمبر لم تؤد إلى تدخّل عسكري في "الشرق الأوسط" فحسب، بل إلى تطوير أسلحة قوة ناعمة جديدة يمكن أن تُحدث دماراً عظيماً، وأن تقوّض أي مجتمع من الداخل، على الرغم من أنها غير مرئية.

وتضيف الكاتبة الروسية التي وقف بلدها بشراسة مع نظام القذافي ضد آمال شعبه بالحرية، ويقف، الآن، بشرسة أكبر، ضد مطامح السوريين بالتحرر من النظام العربي الأكثر استبداداً وطغياناً:

اليوم نستطيع أن نرى أن المبادرات التي أطلقتها وزارة الخارجية الأميركية خلال العقد الأول من القرن الجديد، عادت عليها بنتائج مثمرة. فالشبان الذين هم المستخدمون النشيطون لوسائل الاتصالات الجديدة، باتوا فعلاً القوة التي استطاعت أن تغير الأنظمة السياسية في "الشرق الأوسط" وشمال إفريقيا. لقد أصبحوا أداة الأجندات الخفية.

وليس غريباً، طبعاً، أن يتصادى هذا الكلام الذي يستهين بدم الشبان العرب الذين يحاولون رفع نير الاستبداد عن أعناق شعوبهم مع كلام مماثل لمعلقين روس وربما صينيين. فوراء الأكمة ما وراءها كما يقولون. فقد سجل مجلس الأمن موقفاً مخزياً للصين وروسيا متواطئاً مع كتائب القذافي التي كانت تهدد بسحق بنغازي، وليس مستبعداً أن يسجل، عما قريب، موقفاً أكثر خزياً لهاتين الدولتين اللتين تتحالفان مع الطغيان العربي فيما يتعلق بجرائم النظام السوري ضد شعبه.

IV

"الأجندات الخفية". هذا هو مربط الفرس عند الكاتبة الروسية. وهذا الكلام عن "الأجندة الخفيَّة" يحدث دغدغة لدى رهط من المثقفين والسياسيين العرب ذوي الخلفيات القومية والماركسية بنسخها المبتذلة، ممَّن وقفوا، ولا يزالون، مع أنظمة الطغيان العربي بحجة تغليب "التناقض الرئيسي" (الإمبريالية والصهيونية) على "التناقض الفرعي" (ما يسمونه الأنظمة الوطنية العربية).

ولستُ من السذاجة كي لا أعرف أن مصالح الجماهير العربية ربما تتقاطع في لحظة معينة، من دون تخطيط ولا أجندة، مع مصالح آخرين؛ قوى عظمى مثلاً. فالمثال الفلسفي المدرسي القديم لا يزال صالحاً: أن تغصَّ بالماء وتموت لا يعني أن تكفَّ عن شرب الماء. إن العلة ليست في الماء، فنحن بحاجة إليه ولن نتوقف عن شربه لأن هناك احتمالاً أن نغصَّ به ونموت. الماء أساس الحياة، وهو هنا ليس سوى استعارة للحرية، فنحن لن نتوقف عن طلبها لمجرد أنها ربما (أقول ربما) تجد صدى في نفوس آخرين، وقد تتقاطع مع رؤى وتصورات تخصهم. فإن لم نستطع التعويل على ديناميات شعوبنا ورؤيتها الواضحة لمصالحها ووعي شرائح من نُخبنا التي لم ينخرها الفساد، فهذا يعني أن نقرأ على أنفسنا السلام. سيكون هناك دائماً مصالح تتقاطع بين ما هو محلي وما هو خارجي، ويجب ألاّ نُصاب برهاب الارتياب في حاجتنا إلى الحرية لمجرد أن لهذه الكلمة رنّة مغايرة في أمكنة أُخرى.

V

لكن لِمَ نفلسف ما ليس محتاجاً إلى فلسفة؟ ما حاجة أميركا إلى إطاحة أنظمة تسهر على مصالحها (مصالح أميركا) كما لم تسهر عليها هي؟ فالثورة في كل من تونس ومصر، بحسب ظني، لم تكن حاجة أميركية أو غربية، علاوة على أن مصالح الغرب ليست مهددة في ذينك البلدين، بل لن تجد الدول الغربية مَن يسهر على مصالحها الاستراتيجية مثلما فعل النظامان التونسي والمصري، ولن تجد رئيسين يقدّمان مصالح القوى الغربية (وإسرائيل) على مصالح شعبيهما ومحيطهما، كما فعل بن علي وحسني مبارك.

ليس هذان النظامان هما اللذان أثارا الحمية "الوطنية" و"القومية" لبعض المثقفين والسياسيين العرب. وفي الواقع، ومع أنه ليس ثمة مثقف أو سياسي عربي قومي أو يساري أو إسلامي، ترحّم على بن علي وحسني مبارك، إلاّ إن هذين الرئيسين اللذين خلعهما شعباهما ليسا كلمة السر وراء حملة التشكيك، وإنما هو النظام السوري.

لم يتساءل المشككون في أميركية الانتفاضة السورية ضد نظام بشار الأسد لِمَ تركت الولايات المتحدة (والدول الغربية عامة) دم المنتفضين السوريين يُسفك بغزارة من دون أن تقوم بإجراء رادع حقيقي ضده. لم يتساءلوا عن انعدام الشهية الأميركي، الواضح وضوح الشمس، لإطاحة نظام بشار الأسد وقد جاءت الفرصة تسعى. هل هناك فرصة أفضل من هذه للتخلص من النظام السوري؟ وإذا كان الشبان السوريون يعملون وفق أجندة أميركية خفيَّة فلِمَ لا تمد لهم الولايات المتحدة يد العون وهي قادرة على ذلك؟ فالانتفاضة السورية الصعبة والعنيدة ما زالت تتواصل، وها هو دم غزير يُسفك، وها هم أطفال يجندلون بالرصاص،

ويمثَّل بأجسادهم، وتقطع أعضاؤهم التناسلية (الطفل حمزة الخطيب على سبيل المثال) ولا يصدر عن البيت الأبيض عُشر ما صدر عنه حيال النظام المصري وحسني مبارك.

وهنا يمكن أن نرى المصلحة الاستراتيجية الأميركية العليا وهي تصان: الحفاظ على أمن إسرائيل وفق قواعد لعبة مضبوطة. فنظام حسني مبارك ليس هو فقط، مَن عمل على ضمان أمن إسرائيل، بل فعل ذلك أيضاً النظام السوري من وراء البرقع الممانع للمقاومة. وكي لا أكون عدمياً سياسياً عليّ أن أقول إن الأمر يتعلق بقواعد لعبة حافظ على أصولها النظام السوري جيداً بما في ذلك "دعمه" حزب الله وحركة "حماس"، كما أن الولايات المتحدة، أمّ إسرائيل الحنون، لا تضمن ما سيحدث في حال اختلت "قواعد اللعبة" التي أرستها مع نظام عائلة الأسد. لقد أفشى بعض المعلقين الأميركيين السرَّ المعلن في امتناع إدارة أوباما من المضي قدماً في "اغتنام" فرصة إطاحة النظام السوري: الشيطان الذي نعرفه خير من الشيطان الذي لا نعرفه. وهذا يلخص، إلى حد بعيد، قواعد اللعبة المتفق عليها بين النظام السوري، منذ انقلاب الرئيس الراحل حافظ الأسد، والإدارة الأميركية وربيبتها إسرائيل. فليس المطلوب من النظام السوري أن يكون نسخة عن نظام حسني مبارك، لكن ليس عليه أيضاً أن يغادر مساحة المناورة القابلة للتحمّل، وربما الاحتواء، من نظامَي واشنطن وتل أبيب. وهذه صيغة مريحة لنظام الأسد، بل صيغة تُكسبه ما ليس فيه وما ليس قادراً فعلياً عليه: المقاومة التي تجد لنفسها، في إطار قواعد اللعبة إياها، اسماً آخر مراوغاً ورخواً يسمى: الممانعة. لا مانع، إذاً، من ممانعة على هذا النحو ما دامت لا تهدد، بالعمق، قواعد اللعبة التي تجعل من إسرائيل القوة الضابطة للمصالح الأميركية في المنطقة. لكن هذا قول يساري أيضاً. أليس كذلك؟ فالرياح القوية والمباركة التي تهز عروش الطغيان في منطقتنا العربية، لن تجعلنا نترك تحليلاً قديماً ـ متجدداً: أن إسرائيل هي القاعدة المتقدمة للإمبريالية الأميركية في المنطقة، وحليفها الذي لا ينافسه في ذلك أحد مهما يقدّم لواشنطن من خدمات، ويصعّر خده لها.

إن وطنية الانتفاضة السورية لا تحتاج إلى شهادة. ومَن يطلب الحرية والكرامة والعدل، سيطلب، عاجلاً أم آجلاً، التحرير، أو، في أضعف الإيمان، سيعمل على تغيير "قواعد اللعبة" التي صمدت، ويا للعجب، حتى بعد رحيل مصممها الداهية حافظ الأسد. لا فارق عندي، بين انتفاضة الشبان المصريين التي تحولت إلى ثورة شاملة تتوالى فصولاً، وبين انتفاضة أقرانهم السوريين. وإذا كنا نقيس انعدام وطنية صف ما بوقوف الولايات المتحدة إلى جانبه فإننا، في الواقع، لم نرها تشمر عن ساعديها وتهرع لإنقاذ درعا أو بانياس، تل كلخ أو جسر الشغور، دوما أو معرَّة النعمان. لم تقل "سيدة العالم الحر" للرئيس بشار الأسد: اِرحل.

لديّ، ولدى شبان الانتفاضة، معايير عديدة أُخرى على تفوّق وطنية وقومية المنتفضين على نظام بشار الأسد غير الموقف الأميركي والغربي منهم. فهذا ليس معياراً يُعتدُّ به في أي حال، وإنما المعيار الحقيقي هو كشفهم كذب النظام في قضية "المقاومة"، وسخريتهم من "ممانعته". لقد قالوا له إن درعا وبانياس وحمص وتل كلخ وتلبيسة ودوما ومعرَّة النعمان ليست الجولان. فالجولان هناك ونحن معك إن كنت ذاهباً إليه. لكنه لن يذهب إلى هناك أبداً. ■